سينما

حصاد الأسبوع الأول من «مهرجان كان السينمائي الدولي» خيّمت عليه تيمة التمزّق العاطفي والعائلي. إنتاجات أبرزت تناقضات الذات في علاقاتها، مع تميّز ناني موريتي الذي عدّ النقاد عمله «أمي» من أبرز الأفلام المتسابقة على «السعفة الذهبية» حتى الآن

رسالة كان الحبّ في جميع أحواله

كان - **عثمان تزغارت**

في حصاد الأسبوع الأول من «مهرجان كان السينمائي» الثامن والستين، تسعة أفلام دخلت معترك السباق على «السعفة الذهبية» (من مجموع 19 فيلماً). تجمع كل هذه الأعمال تيمة التمزق العائلي وموضوع الحب في كل أحواله وتقلباته. برز ذلك بصيغ متقاربة، إن على مستوى الإشكاليات المطروحة أو الرؤى الإخراجية، في أربعة أفلام هي أهم الأعمال المعروضة حتى الآن: «ملكي» لمايوان، و«بحر الأشجار» لغوس فان سنت، و«أمي» لناني موريتي، و«أختنا الصغرى» لهيروكازو كوري إيدا. تُرجمت إشكاليات الحب وآلامه وخيباته أيضاً في أفلام يورغوس لانثيموس (سرطان البحر)، وماتيو غاروني (حكاية الحكايا)، وتود هاينس (كارول)، ولازلو نيماس (ابن شاوول)، لكن في صيغ وقوالب فنية مغايرة.

الفرنسية إيمانويل بيركو التي كانت أول من طرح هذه الإشكاليات في فيلمها «الرأس المرفوع»، الذي افتتح به المهرجان (خارج المسابقة)، عادت إلى الواجهة، كممثلة هذه المرة، في فيلم «مَلكِي» لمايوان. تقاسمت مع النجم فانسان كاسيل قصة حب عاصفة تتقلب باستمرار على مدى عشرة أعوام، في أتون ثنائية التجاذب والتنافر. ورغم انتهاء العلاقة بالطلاق، إلا أنّ الانفصال النهائي يظل مستعصياً بين العاشقين، لأنّ طفلاً ولد من هذه الزيجة العاصفة يعتبره كلاهما «مَلكِي الصغير». ثنائية التجاذب والتنافر ذاتها نجدها في «بحر الأشجار» لغوس فان سنت. فيلم انقسم بشأنه النقاد، بين مؤيد يرى أن المعلم الأميركي يعود هنا، على خطى بداياته، إلى السينما التأملية الحميمة التي صنعت شهرته وفرادة عوالمه الفنية («الفيل» الذي نال «السعفة الذهبية» عام 2003 و«حديقة البارانويا» الذي حاز جائزة ستينية كان عام 2007)، بينما رأى آخرون أنّ سيناريو الفيلم لم يرق إلى المستوى المرتقب من قبل صاحب «هارفي مليك». ولا شك في أنّ هذه الفئة الثانية من النقاد هم ممن اكتشفوا فان سنت متأخرين بعد النجاح العالمي الذي حققه «ميلك». بالتالي خابت توقعاتهم، إذ لم يجدوا في جديده الحبكة الهوليوودية التي جعلت من «ميلك» فيلماً تجارياً وأسع الانتشار، ولا الخلفية النضالية المرتبطة بكونه عرّاب السينما المثلية وأحد أبرز المدافعين عن حقوق المثليين في السينما المستقلة الأميركية.

في «بحر الأشجار»، يستعيد فان سنت سينماه التأملية الحميمة. يزج ببطله الأميركي «آرثر» (النجم ماثيو ماك كونوغي) في غابة «بحر الأشجار» اليابانية التي يقصدها اليائسون من مختلف بقاع العالم للانتحار، ليتخذ من ذلك حجة لاستعارة الكثير من رمزيات الميثولوجيا اليابانية وحكمتها. ولعل هذه الخلفية الثقافية والروحية المغايرة أسهمت بدورها في تعميق سوء الفهم بين المخرج وقطاع واسع من النقاد، بخاصة الغربيين منهم.

على مدى سنين طويلة، يعيش بطل فان سنت «آرثر» مع زوجته «جوان» (النجمة ناعومي واتس) قصة حب

مشهد من فيلم «ملكي» لمايوان الذي عرض أمس

متقلبة، تتنازعها هي الأخرى ثنائية التجاذب والتنافر، ما يفضي بالزوج إلى البرود واللامبالاة، فيما تجد زوجته متنفساً في إدمان الكحول. ولا تستيقظ مشاعر الحب مجدداً بينهما، إلا بعد فوات الأوان. تصاب الزوجة بورم دماغي، ويرافقها «آرثر» خلال فترة العلاج، فإذا بالأطباء يكتشفون أن الورم لم يكن سرطانياً، فيعتقد الزوجان أنهما سيبدآن حياة جديدة يتداركان فيها «أخطاء الماضي». إلا أنّ الزوجة تقضي بشكل مفجع في حادث سير، وهي عائدة من المستشفى! هذا الأمر يدفع «آرثر» إلى اليأس والاكتئاب، فيسافر إلى غابة «بحر الأشجار»، بقصد الانتحار. لكن روح زوجته تتجلى له، بأشكال شتى، لتكشف له كل ما كان يود معرفته عنها، ولم يتسع الوقت لذلك قبل وفاتها. فجيعة الحب الناجمة عن «أخطاء الماضي» برزت بقوة أيضاً في رائعة ناني موريتي «أمي» التي عدها النقاد العمل الأبرز من بين الأفلام المتسابقة على «السعفة الذهبية» حتى الآن. لكن الحب عائلي بين مخرجة سينمائية شابة وأمها. تصاب الأم بوعكة صحية عارضة، فيما ابنتها منشغلة عنها بتصوير فيلم اجتماعي مناهض للهجمة الليبرالية المتوحشة التي هيمنت على إيطاليا بفعل السياسات البيرلوسكونية. فجأة، يكتشف الأطباء أن الأم المسنة مصابة بتضخم في القلب، وأنها ستموت خلال أسابيع. وإذا بالمخرجة تكتشف أنّ الوقت قد فات لتدارك أخطاء الماضي التي شغلتها عن والدتها.

الماضي وجراحه احتلا أيضاً مكانة مركزية في فيلم «أختنا الصغرى» لهيروكازو كوري إيدا. المعلم الياباني الذي كان قد أبهر الكروازيت عام 2013، برائعته «الولد شبيه أبيه»، قدم عملاً ملحمياً، كان الأكثر حظوظاً لدى جمهور ونقاد «كان»، خلال الأسبوع الأول من هذه الدورة، قارنه بعضهم بأعمال مواطنه الأشهر شوهي إيمامورا (1926 - 2006)، وبالأخص لجهة المنحى النفسي في نحت شخوصه وتعرية جراحها الخفية تدريجاً. يروي الفيلم قصة ثلاث شقيقات يكتشفن خلال جنازة والدهما، الذي تخلى عنهن قبل ثلاثين سنة، أنّ لهن أختاً صغرى غير شقيقة، ويقررن الاعتناء بها بعد وفاة الوالد. لكن مشاعرهن يواجهها تباين بين تدليلها بوصفها أصغرهن، والحقد عليها أحياناً لكونها السبب الذي جعل والدهن يتخلى عنهن بعد طلاقه من أمهن.

واللافت أن بنية كل هذه الأفلام ـ رغم اختلاف عوالم وأساليب مخرجيها ـ جاءت متشابهة كثيراً. جميعها يُفتتح بمشاهد تراجيدية مطولة (حادثة تزلج تليها أسابيع طويلة من العلاج في فيلم مايوان، دخول بطل فان سنت إلى غابة «بحر الأشجار» بغرض الانتحار، ثم تحول ذلك إلى رحلة تيه طويلة، ومرض الأم ثم إعلان الأطباء قرب وفاتها في فيلم ناني موريتي، جنازة الأب وما يبرز خلالها من أحقاد وضغائن في فيلم كوري إيدا...)، وتتخلل هذه المشاهد التراجيدية فلاش - باكات متقطعة، بحيث تكون الآلام والمعاناة المحاور الأساسية للقصة، فيما لحظة السعادة والصفاء مجرد ومضات تُستعاد، بين الحين والآخر، في مرآة الذاكرة...

الجرح السوري النازف في «ركن الفيلم القصير»

إنّه قسم «المواعيد الغراميّة» في «مهرجان كان». صنّاع أفلام (معظمهم شباب) من جهات العالم يسجّلون أفلامهم في «ركن الفيلم القصير» مقابل 90 يورو، ثمّ يصلون الكروازيت للترويج والتشبيك مع الشركات والمموّلين والمعاهد المتخصصة وممثّلي المهرجانات الدولية. إنّه جسر عبور بين الأفلام القصيرة ورحاب الأشرطة الطويلة. كثير من صنّاع الأفلام العرب يتسرّعون في تضخيم المشاركة في الركن. يكفي أنّهم في «مهرجان كان» لاستغلال صيته الكبير. ببساطة، «الركن ليس مسابقة رسمية أو تظاهرة عرض، بل هو فضاء ترويجي وتسويقي للأفلام القصيرة». هكذا، شدّد الناقد السوري صلاح سرميني مراراً، بعدما ساعد مخرجين سوريين وعرب في معرفة الركن والوصول إليه. النتيجة السورية غير مسبوقة: 12 فيلماً في الملتقى الكبير.

خرائط سينمائية تنهل من الجرح السوري النازف، من وجهات نظر مختلفة. إنتاجات تنوس بين العام والخاص والمستقل. بنى تدفع ثمن عدم وجود معهد أكاديمي للسينما في البلاد، وقلّة السيناريوات المتينة. كثير منها يبحث عن البروباغندا المسوّقة لموقفه السياسي، على حساب الصنعة والأفلمة. إنّها لعنة التلقين الحاضرة في المشهد السينمائي السوري اليوم. «متصوّف» (25 د.) لمحمد موسى، يرافق زاهداً يتوسّل الانعزال عن أهوال الحرب، إلا أنّ ذلك يبدو متعذّراً، فهي تدقّ باب منفاه. شريط يغزل على درامية الإضاءة، وتنويع أساليب التصوير، وأداء بطله محمود خليلي. الاستفاضة في اللقطات، والمباشرة في المونولوغات مآخذ لا يمكن إغفالها. حنّا كريم يتحدّى خطر التجوال في حلب القديمة في «كالحمام الزاجل» (13 د.). بين الروائي والتسجيلي، يتلمّس الباقي من جمال إحدى أخطر مدن العالم هذه الفترة.

عموماً، يبقى إغراء اللقطة الجمالية غالباً على العمارة الدرامية التي لم تكن بتلك المتانة. «كالحمام الزاجل» أفضل فيلم في «مهرجان خطوات السينمائي الدولي للأفلام القصيرة» 2015 في اللاذقية، وهي ثانية جوائز كريم بعد إحدى جوائز مهرجان ساير الآسيوي للأفلام القصيرة في إندونيسيا العام الفائت عن «دائرتك». أمجد وردة لا يغادر حلب في «Goal to Syria» (4 د.). أنيماشن يسلّط الضوء على تضحيات رجال الدفاع المدني في المدينة، وشجاعتهم في إنقاذ العالقين تحت الأنقاض. معاينة أضرار يكرّرها وضاح الفهد في حمص، من خلال وثائقي «أولاد الحجارة السود» (24 د.)، إثر خروج المسلّحين

> يرصد سيمون صفية الاغتصاب الذي تعرّضت له «جوليا» خلال الحرب

وعودة بعض المدنيين. في «جوليا» (17 د.)، يواصل سيمون صفية تطوّره بعد التجريبي «ليست مجرّد تفاحة» (2012، 1 د.)، والروائي «ليش؟» (2013، 8 د.)، والتسجيلي «النفق» (2013، 25 د.).

ينضج بشكل ملموس على مختلف المستويات، بدءاً من الكتابة وصولاً إلى الميزانسين والأسلوبية وبناء المشهدية. بخفة وبنية هادئة وكلمات قليلة، يرصد تبعات الاغتصاب الوحشي الذي تعرّضت له «جوليا» (أداء متميّز لرنا ريشة) على خلفية الحرب السورية. فاز عنه بجائزة أفضل إخراج في «مهرجان سينما الشباب والأفلام القصيرة الأول» في دمشق. «عشر دقائق بعد الولادة» (10 د.) أوّل أفلام نادين الهبل، عن سيناريو ذكي للصحافي ماهر المونس (أفضل سيناريو في «مهرجان سينما الشباب والأفلام القصيرة الأول»).

عشر دقائق تختزل حياةً كاملةً في الجحيم السوري، إثر انفجار كبير في العاصمة. اللافت في الشريط أسلوب تفكيره الطازج، وبعده عن الكليشيهات في المقاربة والتطوير. في عاصمة أخرى، يواصل الأخوان محمد وأحمد ملص استعمال الفن كسلاح لدعم «الثورة السورية». في «البحث عن عباس كيارستمي» (13 د.)، يجول محمد ملص في باريس بحثاً عن السينمائي الإيراني. الهدف حثّه على التحدّث مع سلطات بلاده التي تدعم النظام السوري. فكرة لافتة كان يمكن العمل عليها أكثر في شريط طويل، خصوصاً أنّ ملص يذكر أن مخرجين سوريين قضوا في الحرب مثل باسل شحادة وتامر العوّام. بدوره، يقترح أحمد الحاج باكورته «هي ثلاثة مسامير فقط!! زحل يلتهم ابنه» (7 د.). تجريبي على مستوى الصوت والصورة، يولّف التشكيل مع الصوت والكوادر غير التقليدية، من أجل احتفاء سريالي بالحياة والرغبة في التحرّر والانعتاق. المميّز في تجربة الحاج أنّها مستقلة بالكامل، وقائمة على تعاون عدد من «فدائيي» السينما الساعين إلى الاختلاف والتجديد. «دواليب الهوى» (5 د.) ليارا جرّوج، يعد بصانعة أفلام واعدة. طفلة تراقب العالم من خلف النافذة، فيما تتطلّع للخروج ومشاركة الأولاد اللعب. من البديهي أنّ الحرب مجهضة للأحلام، مثل الاجتماع بالعائلة مجدداً في «آدم» (7 د.) لأماني السعيد، والعودة إلى البلاد لمساندة «الثورة» في «حنا الغريب» (32 د.) لعبد الله شمسي باشا. في «ابتسم فأنت تموت» (14 د.) لوسيم السيد، تتراكب العوالم الداخليّة لمصوّر الفوتوغراف وأزماته الشخصية مع حال بلد كامل، لتنتج بنية تقترح مستويات متعددة من القراءة والتأمّل.

علي...